III. المناهج والإجراءات والاستحداثات المنهجية:

1. المنهج والنظرية في الدراسات الأنثروبولوجية:

أ- النظرية التطورية:

تؤمن هذه النظرية أنّ المجتمعات تنتقل عند تطورها من البسيطة البدائية إلى المركبة المعقدة مثلما تتطور الأجزاء العضوية في الكائن البايولوجي عندما ينمو, وينطبق ذلك تماماً على الحضارات الإنسانية فإنّها تطورت عبر مراحل عديدة حتى وصلت إلى مرحلتها الراهنة, وعلى ضوء ذلك فإنّ هناك حضارات دنيا أفرزتها المجتمعات البدائية وحضارات تمثل قمّة التقدم الحضاري والثقافي أفرزتها مجتمعات متطورة, ويتم التطور عبر خط مستقيم ومتصاعد تشكل كل مرحلة أساساً لما بعدها حسب نظام لا يزاغ عنه يرتكز على ثلاثة قواعد هي حتمية التطور وتصاعدية المسار وتعاقب المراحل, ولعل أبرز من أنضج الصورة من الفلاسفة هو أوغست كونت في قانونه الاجتماعي الذي يرسم ثلاثة مراحل لتطور الحضارة هي المرحلة اللاهوتية والمرحلة الميتافيزيقية ومرحلة العلوم العقلية, فهو يرى أنّ التطور الحضاري يتبع خطاً معيناً خلال مراحل واضحة نحو غاية يمكن استجلاؤها وتقصيها لكن كونت اختلف عن الآخرين بأنه ركز على معايير روحية وليس تقنية, ثمّ بعد كونت أثار سبنسر فكرة توحيد الأفكار الخاصة بالتطور الاجتماعي مع نظرية التطور العضوي البايولوجية, مبيناً أنّ قوانين العلوم الطبيعية تنطبق على العلوم الاجتماعية في تقدم وتطور المجتمعات, ثمّ رأى التنويريون بالقرن الثامن عشر والتاسع عشر نفس الرؤيا, فقد طرح مونتسيكو نظرية تطورية للمجتمعات تتكون من ثلاثة مراحل هي مرحلة الصيد أو الوحشية ومرحلة الرعي أو الهمجية ثمّ مرحلة الحضارة, ولاقت هذه النظرية رواجاً بالقرن التاسع عشر من قبل المفكرين الاجتماعيين أمثال مورغان وتايلر ثمّ من التنويريين ظهر الاسكتلندي فيرجسون الذي طور نظرية التطور الثقافي فذهب إلى أن مرحلة البربرية تتميز عن المرحلة الوحشية بظهور الملكية الخاصة, ووصف مرحلة الحضارة التي أعقبت المشاعية البدائية بظهور المجتمع المتمدن الراقي خلقياً ذو النظم السياسية غير الاستبدادية.

لقد ظهر بالقرن التاسع عشر جيل من علماء الأنثروبولوجية التطوريون أثرت أعمالهم تأثيراً بالغاً على هذا العلم معتمدين على شواهد ثقافية مقارنة وتاريخية وأثرية للتقدم الاجتماعي والثقافي الشامل ولأصول بعض النظم الاجتماعية مثل الدين والزواج والأسرة ومن أبرزهم مورغان الذي أثرت نظريته على أعمالماركس وأنجلز ولو أنّ ماركس أثر بوجود حركة التطور من الأنقص إلى الأكمل عبر المواقف لكنه يرى أنّ الجوهر المحرك لهذا التطور هو المادة وليس الروح التطورية المطلقة فهو اعتبر المادة هي أصل الوجود, المهم أنّ هذا الاتجاه التطوري بالتقدم والرقي يراه البعض بشكل خط مستقيم ويراه آخرون يشكل خطاً متعرجاً ومنهم ماركس وهيجل ومنهم من يراه بشكل لولبي بدورات تسير للأمام لكن لا تعود إلى أصلها بل تذهب صعوداً أو نزولاً لكنها تسير باتجاه الأمام, وآخرون يرونه بأشكال أخرى والمهم في هذا كلّه هو مفهوم التقدم السائر في الاتجاه

ومن منطلق إلى غاية لكن مع بدايات القرن العشرين تحدت الدراسات الأنثروبولوجية ما كان سائداً بالقرن التاسع عشر وأوضحت أنّ لكل مجتمع حضارة خاصة به تميزه عن الحضارات الأخرى ونسفت فكرة الحضارات الدنيا والعليا لتراث حضاري انتقل بأقنية حضارية من جيل إلى جيل وأوضحت أن التطور البايولوجي العضوي شيء مادي لا يمكن أن يقارن بالشيء الفكري والذوق الذي تبنى به الحضارات وأن مروجي ذلك من العلماء الذي يصنفون الناس على أساس بايولوجي يؤيدون العنصرية التي تضع العرق (الآري) في قمة الأجناس الأخرى بغض النظر عن الأمور السياسية, وأكدوا أن توزع الإنسان ضمن سلالات يخضع لعوامل غير بايولوجية فبرزت بهذا الاتجاه نظرية (ألاحدية) التاريخية في الولايات المتحدة مؤكدة العمل مع شعوب غير غربية للرد على النظريات التخمينية حول العلاقة بين العرق واللغة والثقافة وقد فسح نقد المدرسة التطورية هذا مجالاً واسعاً لظهور المدرسة الوظيفية والبنيوية للأنثربولوجيا فوصفت المجتمع وشرحت الثقافة استناداً إلى وظائفها ورغم الدفاع المستميت لأنصار التطورية من الأنثروبولوجيين الذي استخدموا المبادئ التالية في حججهم:

- ✓ إنّ ثقافة أي مجتمع تتطور في طريق واحد خلال مراحل محددة وفق قوانين تحكم الثقافة الإنسانية لتمررها بمراحل تطورية حتمية مميزة .
- ✓ إنّ اكتساب السمات الثقافية أو توارثها تعتمد على القدرات العقلية للإنسان وهذا مرتبط بوحدة التكوين الفسيولوجي للإنسان, وطالما أنّ الإنسان يتوارث مكوناته الفسيولوجية فإنّ أفراد المجتمع يرثون الثقافة بالقدر الذي تتيحه لهم قدراتهم العقلية, أي أنّ التقدم والتطور مرده إلى تفوق أو تخلف العقل البشري.
- ✓ إنّ عناصر الثقافة ومكوناتها قابلة للإعارة أو الانتقال من ثقافة إلى أخرى.
- ✓ إنّ عوامل التغيير الثقافي تنمو ذاتياً وتظهر مع ظهور المرحلة التطورية بغض النظر عن تأثير الزمان والمكان.
- ✓ إنّ الثقافات تتطور ذاتياً وتنتقل من مرحلة إلى أخرى لمجرد ظهور العوامل والشروط الكافية لظهور هذه المرحلة .

ورغم حجج ومبادئ التطوريون فقدت التطورية دورها وأصبحت غير ذا قيمة أمام بريق الوظيفية البنيوية لأسباب كثيرة أهمها:

- ✓ اعتمدت معلومات التطورية على ما جمعه الرحالة والمستكشفون والجنود والتجار والمبشرون فجاءت انطباعاتهم مجتزءة واستندت إلى تفسيرات افتراضية وتخمينات لم يستطيعوا أن يقدموا تفسيراً واضحاً لفكرتهم عن التطور المتوازي للثقافة المرتبط بالتقدم.
- ✓ وصفت كتابات *تايلر ومورغان* بالغموض في بنائهم لمراحل تطور الجنس البشري.
- ✓ تمركز التطوريون خاصة بالقرن التاسع عشر حول العرق.

ب- المنهج الأنثروبولوجي عند الإنتشاريين:

انطلقت تلك المدرسة من فكرة أن الثقافة كثيراً ما تكون مستعارة، حيث تنشأ في مركز واحد أساسي تنتقل بعده إلى المراكز الأخرى عبر مجموعة من العوامل، و يضيف أصحاب هذه المدرسة أنه إذا ما دققنا في المسألة وجدنا أنه لم يكن هناك إلا عدد محدود من المراكز الهامة التي عملت على تنمية الثقافة و نشرها كما أن المواصفات المنتشرة قد تخضع خلال عملية الاستعارة و الاستيعاب إلى تغييرات و تبدلات كثيرة، و بالتالي فإن مفهوم الصدفة التاريخي في انتشار المساهمات الحضارية يلعب دوراً فعّالاً و مواجهاً لمفهوم الامتداد الطبيعي و الحتمي للمؤسسات الاجتماعية المرافق لأفكار التطوريين، و هناك ثلاث وجهات أساسية عبرت عن وجهة نظر تلك المدرسة أولها:

المدرسة الانتشارية البريطانية:

و مؤسسها هو غرافتون إليوت سميث عالم التشريح الشهير الذي انكب خلال إحدى فترات حياته على دراسة المومياء المصرية و هذا قاده إلى الإقامة في مصر الذي أدهشته حضارتها و أخذ يلاحظ بأن الثقافة المصرية القديمة تضم عناصر كثيرة يبدو أن لها ما يوازيها في ثقافات بقاع أخرى من العالم، فقلبت نظريته الاعتبارات التقليدية للزمان و المكان، و لم يقتصر على القول بأن العناصر الثقافية المتشابهة في حوض البحر المتوسط و إفريقيا و الشرق الأدنى و الهند ذات أصل مصري، بل ذهب للقول أن العناصر المماثلة في ثقافات إندونيسية و بولينيزيا و الأمريكيتين تتبع نفس المصدر أيضاً، فالحضارة المصرية بدأت على ضفاف النيل قبل 5 آلاف عام قبل الميلاد و بعد أن بدأت الاتصالات بين الجماعات و الشعوب انتقلت بعض مظاهر تلك الحضارة إلى بقية العالم، و هكذا يجعل سميث من الاقتباس الوسيلة الوحيدة تقريباً التي يمكن من خلالها أن تتم عملية التغير الثقافي و هذا يعني أن مقدرة الإنسان على الاختراع معدومة تقريباً و ينجم عن ذلك رفض فكرة تعدد الأصول، و يتوقف الكثير من براهين سميث على تأويل المعلومات بطريقة المقارنة مع المركز، و كمثال نرى أنه ينطلق من سؤال بناء الأهرامات، متى يكون الأهرام أهراما حقاً بالمعنى الحصري؟ هل الأهرام المستخدم كقاعدة تبنى فوق المعبد كما هو الحال في المكسيك هو عنصر ثقافي مماثل للمبنى الهرمي الذي أنشئ كنصب لملك متوفى و خصص لكي يضم رفاته للأبد؟ و إذا افترضنا وحدة أصل جميع الأهرامات فإن هذه الفرضية ستطبق على حالات أصغر فأصغر إلى الحد الذي تعتبر معه المصاطب الحجرية و التلول الأرضية في وادي الأوهايو هي بقايا أو أشكالاً هامشية من الأهرامات، إن تلك النظرة المتطرفة التي تهمل عناصر المكان و الزمان و تلغي قدرات الإنسان المبدعة جاعلة من الاقتباس المبدأ الوحيد للتغيير الثقافي أضعفت من نفوذ تلك النظرية بحيث لم تتعدى إنكلترا موطن منشؤها.

المدرسة الانتشارية الألمانية:

ثاني وجهات نظر تلك المدرسة هي ألمانية نمساوية : و هي نظرة أكثر عمقاً من التي سبقتها من أبرز مؤسسيها وولهم شميدث و فريتر جرايبنور الذين رفضوا فكرة المنشأ الواحد للحضارة وافترضوا وجود عدة مراكز حضارية أساسية في العالم نشأ عن التقائها نوع من الدوائر الثقافية حيث حصلت بعض عمليات الانصهار و التشكيلات المختلفة

المدرسة الانتشارية الأمريكية:

عبر عنها فرانز بواس الذي أكد أن المسألة الأساسية التي يجب أن تعالج في دراسة الثقافة ليست حادثة الاحتكاك الثقافي بين شيئين بقدر معرفة ما هي نتائج هذا الاحتكاك الديناميكية المؤدية للتغير الثقافي، فاقتصرت تلك النظرة بالتأكيد على صفة الوقائع الدينامية للثقافة أكثر من إعادة تركيبها تركيباً وصفياً، و بذلك رفض هذا الاتجاه الزعم بعدم إمكانية التطور المستقل، و بأن الناس بطبيعتهم غير مبتكرين، و يؤكد بواس على أن تسجيل العناصر المتماثلة في ثقافات متباينة لا يمكن له أن يشكل بحد ذاته برهاناً مناسباً عن الاحتكاك التاريخي، بل يجب أن تتضمن التشابهات عناصر متماثلة مرتبطة فيما بينها بصورة متماثلة لكي تعتبر دليلاً على الانتشار، زد على ذلك أن هذا يجب أن يكون ضمن منطقة محدودة فقط حيث لا يصعب افتراض قيام الاتصال بين المقتبسين و المقتبس عنهم، و هكذا أكد هذا الاتجاه على ضرورة دراسة الثقافات اللاكتابية و اتباع طرق البحث الميداني ذي المعايير الدقيقة و ذلك من وجهة نظر أعضاء الجماعة المدروسة لا من وجهة نظر الأثنوغرافي بحيث شجع على دراسة اللغات الوطنية و استعمالها بالبحث، و بهذا يكون هذا الاتجاه قد دفع بالدراسة الميدانية للأنثروبيولوجيا دفعاً جديداً . كما دفع البحث الأنثروبيولوجي إلى تأكيد دراسة المجتمعات الأولية لذاتها لا كما نراها نحن * و هذا شجع على ظهور اتجاه جديد في الأنثروبيولوجيا قائم على إدخال الآليات النفسية في الدراسات الانثروبولوجية ممثلاً بمدرسة جديدة.[1] (رياض، 1974، ص 127)

ج- المنهج عند التطوريين الجدد:

شهد القرن العشرين اتجاها تطوريا جديدا اعتمد على تعديل نظرية ومناهج التطوريين السابقين وذلك في ضوء الأبحاث الجديدة التي قام بها التطوريون الجدد ومداخلهم المنهجية لدراسة أصل الثقافات ومن هؤلاء: جوردن تشايلد 1902-1957، جوليان ستيوارد 1902-1982، ليزلي هوايت 1900-1985.

لقد تم استخدام السجل الأثري من طرف جوردن تشايلد، ليثبت أن بعض التطورات التقنية الكبرى في تاريخ الإنسان كاستئناس النباتات والحيوانات وزراعة الري واختراع صناعة المعادن... إلخ.

[1] رياض، محمد (1974) الإنسان – دراسة في النوع والحضارة، دار النهضة العربية، بيروت، ص 127.

كل ذلك أحدث تغيرات ثورية في النسيج العام في الحياة الثقافية للإنسان. فتغيرت الأبنية الاجتماعية والسياسية وجرى تنظيم مضمون المعارف التي فهم بها الانسان واقعه. أما الأنثروبولوجي الأمريكي ليزلي هوايت 1900-1975 فقد قال بالتطور الثقافي التراكمي بوصفه من أتباع المدرسة التطورية إلا أنه ذهب إلى أن الثقافة هي في أساسها آلية أو ميكانيزم للبقاء، وأن الطاقة مطلوبة لإمداد الإنسان بضرورات استمراره في الحياة، كما ذهب إلى أن الإنسان في المرحلة الأولى من تطوره كان يستخدم جسمه كمصدر رئيسي للطاقة ولكنه بدأ بعد ذلك في تسخير النار والماء والرياح...إلخ.

ومن بين التطوريين الذين الجدد الذين لايختلفون مع التطوريين السابقين فحسب، بل اختلفوا حتى مع التطوريين الجدد مثل: ليزلي هويت وجوردن تشايلد نجد جوليان ستيواد 1902-1972 حيث أدان ما قال به هؤلاء جميعا، وذلك لعجز هذه المداخل عن الاجابة على السؤال الخاص بالاختلافات والتشابهات الثقافية النوعية باعتبارها متميزة عن التعميمات الغامضة المبهمة لقوانين عالمية الثقافة.

تأثر جوليان ستيواد بالتوازيات في تطور الحضارات القديمة في بيرو والمكسيك ومصر وبلاد ما بين النهرين والصين...ودعا إلى بذل جهود جديدة من جانب علماء الأنثروبولوجيا لدراسة وتفسير التشابهات الملحوظة. ومع ذلك فإن ستيوارد كان حريصا على أن يميز فكرته عن التطور الثقافي والأشكال المتطرفة للتطورية التي سادت في القرن التاسع عشر. يقترح ستيوارد مسارات متعددة الخطوط للتكور تتوقف على الظروف البيئية والتكنولوجية وغيرها، بدلا من مجموعة وحيدة أو أحادية الخط من مراحل التطور لجميع الثقافات.

لقد اقترح ستيوارد ثلاث خطوات أساسية للتحليل الإيكولوجي الثقافي تعبر عن منهجه الذي اشتهر به:

1. تحليل العلاقة المتبادلة بين تكنولوجيا الثقافة وبيئتها، أي إلى أي مدى تستغل الثقافة وبشكل مؤثر الموارد المتاحة لتوفير الطعام والمسكن لأبنائها.
2. تحليل نمط السلوك المرتبط بتكنولوجيا الثقافة، أي كيف يقوم أبناء الثقافة بأداء العمل الذي يجب عليهم القيام به من أجل بقائهم.
3. تقرير العلاقة بين هذا النمط السلوكي وبقية جوانب النسق الثقافي، أي كيف يؤثر العمل الذي يقوم به من أجل البقاء على مواقفهم واتجاهاتهم وكيف يرتبط سلوكهم من أجل البقاء بأنشطتهم الاجتماعية وعلاقاتهم الشخصية.

د- المنهج عند الوظيفيين:

من أجل فهم التكامل الثقافي أكثر عكف بعض السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين على بناء خطة جديدة يمكن من خلالها التغلغل في الوصف الإثنوغرافي وتحليل التكامل بين هذه النظم المختلفة والعلاقات

المتبادلة بين هذه النظم وبين بعضها البعض وكان ذلك إيذانا بميلاد المدرسة الوظيفية في العلوم الاجتماعية خاصة في مجال علم الاجتماع وعلم الأنثروبولوجيا.

وفي مستهل القرن العشرين أصبحت الوظيفية تحظى بقبول عام كمنهج أنثروبولوجي جديد وهام. وكان لكتاب دوركايم "الأشكال الولية للحياة الدينية" الذي ركز فيه على الوظيفة البدائية للدين تأثير كبير على كل من مالينوفسكي 1884-1942، ورادكليف براون 1881-1955.

يرى الوظيفيون أن فكرة التكامل الوظيفي تفترض أن أي جزء في أي نظام في المجتمع لا يمكن فهمه أو تقديره إلا من خلال النظر إلى علاقته الوظيفية ببقية مكونات النظم في المجتمع ذاته، تماما كما لا نستطيع أن نفهم دور القلب إلا إذا أخذنا في الاعتبار علاقته البنائية الوظيفية بالأعضاء الأخرى للكائن الحي والتي تستهدف جميعها بقاء هذا الكائن أي أن الوظيفيين يرون أن كل أنماط السلوك الإنساني تستهدف إشباع حاجات أساسية لا يمكن إدراك معناها إلا في ارتباطها بالأنماط الأخرى داخل البناء.

لقد أجدت إسهامات مالينوفسكي المنهجية في علم الأنثروبولوجيا على أهمية استخدام الباحث للغة الوطنية عند جمع مادته من حقل الدراسة. واستخدامه لما أطلق عليه منهج التوثيق الإحصائي للأدلة المادية؛ مع التأكيد على أن يقدم الأنثروبولوجي رواية صادقة ودقيقة عن مزاياه وعيوبه والأخطاء التي ارتكبها في دراسته الحقلية. وكان مالينوفسكي من الداعين إلى التكامل الثقافي حيث ذهب إلى أن السمة الثقافية لا يجب أن تدرس في عزلة عن غيرها.

بهذا نجد أن هدف العمل الحقلي ليس اكتشاف الوظيفة بل إن بالوظيفة هي أداة معاونة ومنهج لفهم ما يحدث فعلا، ولا ينبغي أن نهتم بالمنفعة بل بما يحدث على أرض الواقع وقت إجراء الدراسة.

هـ- المنهج عند البنائيين:

ترتكز مهمة الأنثروبولوجيا على وصف وتفسير أعمال أو سلوك المجتمعات المعاصرة، إلا أن المهمة الأساسية للأنثروبولوجيا الثقافية عند رادكليف براون كانت أضيق مجالا مما اقترح مالينوفسكي. فعلى حين ركز الثاني على أهمية إسهام العناصر الثقافية في الراحة البيولوجية والسيكولوجية للأفراد، اهتم الأول ومعظم الوظيفيون البنائيون بإسهام الراحة البيولوجية والسيكولوجية للأفراد في الحفاظ على النسق الإجتماعي، فعندهم كانت وظيفة الحفاظ على النسق تسبق كل الوظائف الأخرى.

تدرس الظواهر الاجتماعية في رأي رادكليف براون في إطار علاقاتها المباشرة وغير المباشرة - والتي وصفها بالبناء الاجتماعي- عن طريق ملاحظة أعمال السكان في مجتمع ما ملاحظة مباشرة، تكسف لنا هذه الملاحظة أن هؤلاء البشر يرتبط كل منهم بالأخر عن طريق شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية.

و- مدرسة الثقافة والشخصية:

في سنة 1934 عرضت روث بينيدكت (1887-1948) آراءها في كتابها "أنماط الثقافة" بشكل قوي ومؤثر لموضوع العلاقة بين الثقافة والشخصية، وكان موقفها الأساسي، يتمثل في أنه يوجد في كل جماعة نمط سائد من الصيغ الثقافية. وأنه في أثناء التطور يجب صب كل فرد تقريبا في هذه الصيغ، ويكون الأعضاء الذين يتمتعون بالطبع المحدد وراثيا الذي يتفق أكثر مع نوع الشخصية السائد في الجماعة هم أكثر الأعضاء نجاحا وأكثرهم حظا من الإعجاب، وينظر إلى النوع السائد على أنه النوع المعتاد للشخصية لكل أعضاء الجماعة.

كما عنيت مارغريت ميد (1901-1978) بالعلاقة بين الطبيعة البشرية والثقافة. وقد عرضت في كتابها الشهير "البلوغ في سموا" لفكرة التوتر العاطفي الذي يصاحب فترة البلوغ، حيث أن البلوغ في سموا لا يستتبع التوترات التي يحدثها في المجتمع الأمريكي المتمدن. وخلصت من ذلك إلى أن ضغط البلوغ هو فترة تتحدد ثقافيا في تطور شخصية الفرد ولا ترمي بجذورها في الطبيعة البشرية.

ثم قامت في محاولة مشابهة بدراسة سمات الشخصية عند الذكر والأنثى في ثلاثة مجتمعات ميلانيزية، لمحاولة اكتشاف ما إذا كانت فوارق ثابتة وعامة في السلوك بين الجنسين بغض النظر عن ماهية الثقافة موضوع البحث، فبينت في كتابها "الجنس والمزاج النفسي في ثلاثة مجتمعات بدائية" أن بعض السمات التي كان يعتقد أنها ذكورية غير موجودة في بعض الجماعات وأن بعض سمات الذكورة توجد في الإناث في جماعات أخرى، وينطبق الشيء نفسه على الإناث والسمات التي يزعم أنها سمات أنثوية.

ويمكن القول أن الهدف الأول لأصحاب اتجاه الثقافة والشخصية الذي ظم علماء مثل: مارغريت ميد، رالف لينتون، كاردينر، كورادييوا... هو دراسة العلاقات بين الثقافة والشخصية ويعرف هذا الاتجاه بالأنثروبولوجيا النفسية، الذي شهد محاولات لدراسة الثقافة كما تتجسد في شخصية أعضائها بدلا من محاولة تحليل الثقافة كما تتجلى في الأشياء المادية أو النظم الاجتماعية.

وربما كان منى أهم ما يميز هذا الاتجاه في الأنثروبولوجيا، تأكيد روث بينيدكت أن الثقافات يجب أن تؤخذ ككل باعتبار أن كل ثقافة متكاملة لها مبادئها الخاصة وصيغها الخاصة، وكان أكثر ما ركزت عليه ضرورة الاعتراف بالفوارق الثقافية بين الثقافات وعدم فرض أخلاقنا وقيمنا على كل الشعوب. حيث قالت في كتابها "أنماط الثقافة": «لقد كان علم الأنثروبولوجيا –بحكم تعريفه- مستحيلا طالما بقي هذا التمييز في أذهان الناس بيننا وبين البدائيين، وبيننا وبين الهمجيين، وبيننا وبين الوثنيين. وكان لا بد وأن نصل إلى درجة من التقدم

تجعلنا لا نضع عقيدتنا الخاصة في مواجهة خرافات جارنا، وكان لا بد أن نعترف بأن النظم التي تقوم على نفس الأسس –كالنظم الخاصة بما فوق الطبيعة – ينبغي أن تدرس معا على أن يتضمن ذلك نظامنا الخاص بنا».[2]

كما طورت روث بينيديكت وطبقت منهج تحليل المضمون، لدراسة الثقافة عن بعد، حيث قامت في الحرب العالمية الثانية بدراسة المجتمع الياباني، رغم أنها لم تذهب إلى اليابان أبدا، فقامت بدلا من ذلك بدراسة الوثائق التاريخية والأدب الياباني، والأشكال الفنية الأخرى؛ كما استعانت بالمهاجرين اليابانيين في أمريكا كإحباريين. وإذا كان اتجاه روث بينيديكت قد ركز على أهمية النمط الثقافي، فإن مارجريت ميد وأصحاب الاتجاه المسمى بالثقافة والشخصية، قد اقترحوا ثلاث طرائق لدراسة المجتمعات:

1. دراسة تأثير الثقافة في الشخصية (وقادت هذا الاتجاه مارجريت ميد).
2. دراسة تأثير الشخصية في الثقافة (وقادت هذا الاتجاه روث بينيديكت).
3. الجمع بين الطريقتين السابقتين (وقاد هذا الاتجاه رالف لينتون وكاردينر وكورادیبوا).

ز- الدراسات الوصفية الجديدة:

لقد حاول مالينوفسكي أن يعطينا وسيلة منتظمة لجمع المعلومات من الملاحظات والخبرات الميدانية التي تسمح للباحثين بأن يروا العالم بعين الشخص الوطني. ومنذ ذلك الوقت ظهرت مجموعة متنوعة من التقنيات تزعم كل منها أنها حققت هذا الهدف التقليدي...مع وضع مجموعة من المفاهيم أو النماذج التفسيرية التي تضع قواعد لتنظيم الأشياء التي تمت ملاحظتها بشكل أكثر علمية.

ويمكن استنتاج المبدأ الرئيسي لهذه الأساليب المتشابهة التي يطلق عليها الأن الأساليب العرقية – العلمية فيهي تسعى إلى وضع مجموعة من التساؤلات التي يمكن استنتاجها والتي تكون ذات علاقة ثقافية بالموضوع والتي يأمل الباحث أن تنتج عنها إجابات يمكن استنساخها وتكون ذات علاقة ثقافية بالموضوع بنفس الدرجة. ثم يتم تحليل هذا الكم من المعلومات تحليلا دقيقا في إطار فئات دلالية ومنطقية يتم بناؤها في بناء ومضمون إجراءات "الاستخلاص" والهدف الكلي من كل هذه العملية هو إيجاد صورة منتظمة صحيحة يمكن الاعتماد عليها لمجال معلومات "الإخباري".

ولقد وصفت المجالات الخاصة بالبحث الأنثروبولوجي التي تحمل صفات المعرفية والعرقية العلمية والدلالة العرقية، بأنها تشكل الإثنوغرافيا الجديدة. وقيل أن هذه المجالات هي بمثابة تحد للتعريفات السابقة للعمل الميداني والمعلومات الأنثروبولوجية التي تم جمعها بالكفاءة. ومع ذلك فإن أهداف هذا الأسلوب لا تختلف جدريا عن أهداف مالينوفسكي وإن كانت تمثل إعادة تشكيل للموضوعات القديمة، وتقترح أن توضح أولا

[2] Benedict, Ruth : Patterns of Culture , Mentor Books , N . Y . 1958 ,P . 3.

خصائص الإثنوغرافيا الجديدة ونعرف بعض حدودها التي ربما كان بعضها لا يجد الاعتراف الكافي به. وفي هذا الإطار يمكن طرح مجموعتين من الظواهر:

1. عالم ظاهري أو مادي يتكون من أشياء؛ كالأشياء الملونة والنباتات وأنواع خاصة من العلاقات الاجتماعية، يفترض أننا ندركه معرفيا في شكل نسق أو نظام أو خريطة لفئات مرتبطة منطقيا.
2. ولغة متكلمة ندركها أيضا نسقا أو نظاما رمزيا؛ ويمكن تعريف الأشياء الواقعة في العالم المادي بمجموعة من السمات التي تسمح لأعضاء الثقافة بتمييزها من أشياء أخرى.

وهذه السمات يمكن أن تستخدم من قبل أي متكلم قادر على تمييز وتصنيف وتسمية الأشياء بحيث يمكن الوصول إلى معان متناسقة ويشترك فيها الأفراد ويمكن توصيلها بين المتكلمين الوطنيين. ومهمة الإثنوغرافي ليست وصف المجال الكامل للمعلومات الإثنوغرافية ذات الصلة بالجماعة موضوع البحث، بل تحديد منطقة معينة ذات مغزى مهم اجتماعيا، وتعتبر القرابة أكثر مناطق التركيز شيوعا، واستخلاص الألفاظ التي تشير إلى الأشياء الموجودة في عالم الظاهرات والسعي إلى وضع قواعد تفسر الطريقة التي ينظم بها أعضاء الجماعة عينات أو أشخاص العالم. وكثيرا ما تعقد المقارنات بين الدلالات البنائية.[3]

[3] علي زايدي خلف، قراءة في تطور مناهج البحث الإثنوغرافية – دراسة مقارنة، مجلة كلية التربية، العدد الثاني، الجامعة المستنصرية، سنة 2009، صص1038-1076.